

7

المثل العليا

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره







الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

المُثل العليا لدى
المجتمعات الإنسانية

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ - ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: المُثل العليا لدى المجتمعات الإسلامية
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة
ونشر: جمعية المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى: 2009 م/ 1430هـ

المُثل العليا

لدى

المجتمعات الإنسانية

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلوات على سيّد الخلق محمّد وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين.

إن كلّ جماعة تتّخذ لنفسها مثلاً أعلى تسير إليه وعلى نهجه، وهذا المثل يتكوّن بناءً على نظرة هذه الجماعة للحياة.

فجماعة تستمدّ مثلها الأعلى من الواقع، بحدوده وقيوده، وذلك لأسباب نفسيّة أو خارجية، وأخرى تستمد مثلها الأعلى من الطموح والتطلّع إلى المستقبل، لكن القدرة البشريّة عاجزة عن السير مسافات طويلة في المستقبل قبل أوانه، فتحوّل المحدود إلى مطلق.

وثالثة يكون مثلها هو الله سبحانه. وهو المثل الأعلى الحقيقي الذي لا تناقض فيه.

هذه الأنواع من المثل العليا، عرضُها ونقدُها، والمثل

الأعلى الأفضل منها، تعرّض لها الشهيد الصدر (رضوان الله عليه).

وقد قمنا باختياره من كلام الشهيد، ثمّ تشذيبه من المكرّرات التي تستوجبها المحاضرات، مع التصرّف البسيط بالعبارة محافظة على وحدة السياق، وبالتقديم والتأخير المناسبين مع الإشارة لذلك. كلّ ذلك من محاضرتين للشهيد السيّد محمّد باقر الصدر (رضوان الله عليه) ألقاهما بتاريخ: ١٧ و١٨/ جمادى الثانية / ١٣٩٩ هـ.

وقد حاولنا قدر الإمكان المحافظة على عبارات الشهيد السعيد، مع إضافة بعض العناوين للفقرات والأبحاث، وإعادة ترتيب لبعض الأبحاث المترامية، وجمعها في بحث واحد.

وقد تمّ طباعة هاتين المحاضرتين في كتاب المدرسة القرآنيّة، ويمكن مراجعة المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّد باقر الصدر/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت - لبنان/ ط. ١٩٩٠ م/ ج ١٣.

الأهداف

١. التعرّف على المثل الأعلى في الطرح القرآني.

٢. التعرّف على أقسام المثل العليا.

٣. التعرّف على أسباب تبنّي المثل الأعلى التكراري.

٤. التعرّف على طبيعة مجتمع المثل الأعلى التكراري والإجراءات التاريخية التي تنطبق عليه.

٥. تقييم القسم الثاني من أقسام المثل العليا.

٦. المقارنة بين القسمين الأوّل والثاني من أقسام المثل العليا.

اختيار الأمم لمثلها الأعلى

المثل الأعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخليّ للجماعة البشريّة، وهو يتحدّد من قبل كلّ جماعةٍ بشريّةٍ على أساس وجهة نظرها العامّة نحو الحياة والكون، ومن خلال الطاقة الروحيّة التي تتناسب مع ذلك المثل الأعلى تحقّق إرادتها للسير نحو هذا المثل.

وكلّ جماعةٍ اختارت مثلها الأعلى، فقد اختارت في الحقيقة سبيلها ومنعطفات هذا السبيل.

إنّ الحركة التاريخيّة تتميّز عن أيّ حركةٍ أخرى في الكون بأنّها حركةٌ غائيّةٌ، حركةٌ هادفةٌ، كذلك تتميّز وتتمايز الحركات التاريخيّة أنفسها، بعضها عن بعض بمثلها العليا، وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدّد الغايات والأهداف، وهذه الأهداف والغايات هي التي تحدّد النشاطات والتحرّكات ضمن مسار ذلك المثل الأعلى.

المثل الأعلى في القرآن الكريم

يُطلق القرآن الكريم على المثل الأعلى في جملةٍ من الحالات اسم الإله، باعتبار أنّ المثل الأعلى هو القائد الآمر المطاع الموجّه، وهذا صفات يراها القرآن للإله، لأنّه هو الذي يصنع مسار التاريخ، حتى ورد في قوله سبحانه وتعالى ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1]، حيث عبّر عن الهوى بأنّه إله، حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعداً مصطنعاً، فيصبح هو المثل الأعلى، وهو الغاية القصوى لهذا الفرد أو لذاك. فالمُثل العُليا هي آلهةٌ في الحقيقة؛ لأنّها هي المعبودة حقّاً.

أقسام المُثل العليا

المُثل العليا التي تتبنّاها الجماعات البشريّة على ثلاثة أقسام:

---

(١) الفرقان: الآية٤٣.

القسم الأول: من واقع الجماعة

المثل الأعلى الذي يستمدّ تصوّره من واقع ما تعيشه الجماعة البشريّة من ظروفٍ وملابسات، أي أنّ الوجود الذهنيّ، الذي صاغ المستقبل، لم يستطع أن يرتفع على هذا الواقع.

وحينما يكون المثل الأعلى كذلك يصبح حالةً تكراريّةً، ومحاولةً لتجميد هذا الواقع، وحمله إلى المستقبل، بدلاً عن التطلّع إلى المستقبل، ويكون تحويلاً لهذا الواقع من حالةٍ نسبيّةٍ، ومن أمرٍ محدودٍ، إلى حقيقةٍ مطلقةٍ، لا يتصوّر الإنسان شيئاً وراءها، عندها سوف تكون حركة التاريخ حركةً تكراريّةً.

أسباب تبني هذا النوع من المثل العليا

تبني هذا النوع من المثل العليا له أحد سببين:

١ـ الإلفة والعادة والخمول والضياع

هذا سببٌ نفسيٌّ، إذا انتشرت هذه الحالة النفسيّة، في مجتمع، حينئذٍ يتجمّد ذلك المجتمع؛ لأنّه سوف يصنع إلهه من واقعه.

وهذا في الحقيقة هو ما عرضه القرآن الكريم في كثيرٍ من الآيات، التي تحدّثت عن المجتمعات التي واجهت الأنبياء، لأنّهم جاؤوا بمُثلٍ عُليا حقيقيّةٍ، ترتفع عن الواقع، وتنتزعه من حدوده النسبيّة إلى وضع آخر فكان هذا المجتمع يردّ على دعوة الأنبياء، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾[1] [2].

---

(١) البقرة: من الآية١٧٠.

(٢) ومن الآيات المشابهة لهذا المضمون : ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ المائدة: ١٠٤، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يونس:٧٨، ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ هود: من الآية٦٢، ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ إبراهيم:١٠، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ الزخرف:٢٢.

٢ ـ التسلّط الفرعونيّ

الفراعنة على مرّ التاريخ حينما يحتلّون مراكزهم، يجدون في أيّ تطلّع إلى المستقبل، وفي أيّ تجاوزٍ للواقع الذي سيطروا عليه، زعزعةً لوجودهم. فمن مصلحة فرعون على مرّ التاريخ أن يُغمض عيون الناس على هذا الواقع، ويحوّله إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه. وهذا السبب اجتماعيٌّ لا نفسيٌّ، وخارجيٌّ لا داخليٌّ.

وهذا أيضاً ما عرضه القرآن الكريم ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[1]، والقرآن الكريم يسمّي هذا النوع من القوى بالطاغوت. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2].

(١) القصص: من الآية٣٨.

(٢) الزمر: ١٧ و ١٨.

الطابع الديني للمثل العليا

كلّ مَثَلٍ أعلى من هذه المُثل العليا المنخفضة، لا ينفكّ عن الثوب الدينيّ، سواء أبرز بشكلٍ صريحٍ، أو لم يبرز؛ لأنّ المثل الأعلى دائماً يحتلّ مركز الإله بحسب التعبير القرآنيّ والإسلاميّ، ودائماً تستبطن علاقةُ الأمّة بمثلها الأعلى نوعاً من العبادة لهذا المثل الأعلى، وليس الدين بشكله العام إلّا علاقة عابدٍ بمعبود.

إلّا أنّ هذه الأديان التي تفرزها هذه المُثل العليا المنخفضة أديانٌ محدودةٌ، تبعاً لمحدوديّة نفس هذه المُثل.

محدوديّة الأديان تبعاً لمحدوديّة المُثل

إنّ الأديان التي يفرزها الإنسان من خلال صنع هذه المُثل، ومن خلال عملقة هذه المُثل وتطويرها من تصوّرات إلى مطلقات، هذه الأديان تكون أدياناً محدودةً ضئيلةً، أديان التجزئة في مقابل دين التوحيد القادر على استيعاب

البشريّة بأبعادها، والآلهة التي يفرزها الإنسان بين حينٍ وحين، هي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾(١)، هذا المثل الأعلى الذي هو نتاج بشريّ، لا يمكن أن يكون هو الدين القيّم، لأنّ المسيرة البشريّة لا يمكن أن تخلق إلهها بيدها.

مجتمع المثل المنخفض شبح أمّة

وإذا تقدّمنا خطوةً في تحليل ومراقبة ومشاهدة أوضاع هذه الأمّة، التي تتمسّك بمثلٍ من هذا القبيل، نجد أنّ هذه الأمّة بالتدريج سوف تفقد ولاءها لهذا المَثل أيضاً، لأنّ هذا المَثل بعد أن يفقد فاعليّته وقدرته على العطاء، تفقد هذه البشريّة أو هذه الجماعة بالتدريج ولاءها لهذا المَثل، ومعنى (ذلك) أنّ القاعدة الجماهيريّة الواسعة في هذه الأمّة سوف تتمزّق وحدتها؛ لأنّ وحدة هذه القاعدة إنّما

(١) النجم: من الآية٢٣.

هـي بالمثل الواحد، فإذا ضـاع المَثل ضاعت هذه القاعدة. وتكـون كمـا وصـف القـرآن الكريـم ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُـمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾[1]، وفـي حالةٍ من هذا القبيل لا تبقى أمّةٌ، وإنّما يبقى شبحُ أمّةٍ فقط، وفي ظلّ هـذا الشبح سوف ينصرف كلّ فردٍ في هذه الأمّـة إلى همومـه الصغيرة؛ لأنّه لا يوجـد هناك مَثل أعلى تلتفّ حوله الطاقات.

إجراءات الأمّة الشبح

وقد علّمنا التاريخ أنّه في حالةٍ من هذا القبيل توجد ثلاث إجراءات يمكن أن تنطبق على حالة هذه الأمّة الشبح.

١ـ تداعي الأمّة

تداعـي الأمّـة أمام غزوٍ عسكريٍّ مـن الخارج، وهذا ما وقـع بالفعـل بعد أن فقـد المسلمون مَثلهـم الأعلى، وفقدوا ولاءهم لهذا المَثل الأعلى، ووقعوا فريسة غزوِ التتار.

---

(١) الحشر: من الآية ١٤.

٢ ـ الذوبان

الانصهار في مَثَل أعلى أجنبيّ، هذه الأمّة بعد أن فقدت مُثُلها العليا النابعة منهـا، فإنّها حينئذٍ تفتّش عن مَثَل أعلى من الخارج؛ لكي تعطيه ولاءها.

٣ ـ إعادة المثل الأعلى

أن ينشأ في أعماق هذه الأمّة بذور إعادة المَثل الأعلى من جديد، بمستوى العصر الذي تعيشه تلك الأمّة.

في الإجراء الثاني والثالث، وقفت الأمّة الإسلامية أمامهما على مفترقِ طريقين، حينما دخلت عصر الاستعمار، كان هناك طريقٌ يدعوها إلى الانصهار في مَثَل أعلى من الخارج، هذا الطريق الذي طبّقة جملةٌ من الحكّام في بلاد المسلمين: رضاخان في إيران، وأتاتورك في تركيا، فقد حاول هؤلاء أن يجسّدوا المَثل الأعلى للإنسان الأوروبيّ المنتصر، ويطبّقوا هذا المَثَل الأعلى، ويكسبوا ولاء المسلمين أنفسهم لهذا المَثَل الأعلى، بعد أن ضاع

المَثَـل الأعلى فـي داخل المسلمين. بينمـا أطلق روّاد الفكر الإسلامـيّ وروّاد النهضـة الإسلاميّـة ـ فـي بدايـات عصر الاستعمار، وفـي أواخر الفترة التي سبقت عصر الاستعمار ـ جهودهم فـي سبيل الإجراء الثالـث، أي إعادة الحياة إلى الإسلام من جديد، وتقديمه بلغة العصر، وبمستوى حاجات المسلمين.

القسم الثاني: من طموح الأمّة

يعبّـر عن كلّ مَثَـل أعلى للأمّـة يكون مشتقّـاً من طموح الأمّة، ومـن تطلّعها إلى المستقبل. ولكـنّ هذا المَثَل منتزعٌ عن خطوةٍ واحدةٍ من المستقبل، وعن جزءٍ من هذا الطريق الطويل المستقبليّ.

تقييم القسم الثاني

وفي هذا المَثَل الأعلـى جانبٌ موضوعيٌّ صحيحٌ، وهو أنّ الإنسان عبـر مسيرته الطويلة، لا يمكنه أن يستوعب برؤيته

الطريـق الطويـل كلّه، و لا يمكنــه أن يستوعـب المطلق لأنّ الذهن البشريّ محــدودٌ، ولكن الخطير في هذه المسألة أنّ هــذه القبضة التي يقبضها الإنسان من المطلق، يحوّلها إلى مثلٍ أعلى، و إلى مطلقٍ، حينئذٍ هذا المثل الأعلى سوف يهيّئ لــه إمكانيّات النموّ بقدر ما يمثّــل للمستقبل لكن سرعان ما ســوف يصل إلى حدود هذا المثــل القصوى، وحينئذٍ سوف يتحــوّل هذا المثل نفســه إلى عائقٍ عن التطــوّر، لأنّه أصبح دينــاً، والتعميم فيه تارةً يكون تعميمــاً أفقيّاً خاطئاً، وأخرى تعميماً زمنيّاً عموديّاً خاطئاً.

التعميم الأفقيّ الخاطئ

أن ينتــزع الإنســان من تصوّره المستقبلــيّ مثلاً، ويعتبر أنّ هــذا المثل يضمّ كلّ قيَم الإنسان التي يجاهد من أجلها، بينما هذا المثل لا يمثّل إلّا جزءاً من هذه القيم. ومن أمثلته الإنســان الأوروبيّ الحديث فــي بدايات عصر النهضة الذي جعــل الحريّــة هدفاً، وهــذا صحيــحٌ، ولكنّه صيّــر من هذا

الهـدف مثلاً أعلـى، بينما هذا الهـدف ليسـ إلّا إطاراً في الحقيقـة، وهذا الإطار بحاجةٍ إلى محتـوى، وإلى مضمونٍ، وإذا جـرّد هـذا الإطار عن محتـواه سوف يـؤدّي إلى الويل والدمـار، إلى الويل الذي تواجهه الحضـارة الغربيّة اليوم، التي صنعت للبشريّة كلّ وسائل الدمار.

التعميم الزمنيّ الخاطئ

علـى مرّ التاريخ توجد خطواتٌ ناجحـةٌ تاريخيّاً، ولكنّها لا يجوز أن تحوّل من حدودها كخطوةٍ إلى مطلق، و إلى مثلٍ أعلـى، لأنّ الخطـوة تبقى كأسلوب، ولكـن المطلق يبقى هو الله سبحانـه وتعالى، وحال هذا الإنسـان، الذي يحوّل هذه الرؤيـة المحدودة من عمر الزمـن إلى مطلقٍ، حال الإنسان الـذي يتطلّع إلى الأفق فـلا تساعده عينه إلّا على النظر إلى مسافـةٍ محـدودةٍ، فيخيّل له بـأنّ الدنيا تنتهـي عند الأفق الـذي يراه. انظروا إلـى التمثيل الرائع في قولـه سبحانه وتعالـى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَعْمَالُهُـمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَبُهُ

الظَّمْــآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَــهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1]. يعبر القــرآن عن كلّ هذه المثـل المصطنعة مــن دون اللّه سبحانه وتعالى بأنّها كبيت العنكبـوت، يقول سبحانــه وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِيــنَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2].

المقارنة بين القسمين السابقين من المثل

كثيــراً ما تكون تلك المُثل مــن النوع الأوّل امتداداً للمُثل مــن النــوع الثاني، بــأن يبدأ هــذا المثل الأعلــى مشتقّاً من طموح، لكن حينما يتحقّق هذا الطموح المحدود يتحوّل هذا المثل إلى واقعٍ محــدودٍ بحسب الخارج، حينئذٍ يصبح مثلاً تكراريّاً.

---

(١) النور:٣٩.

(٢) العنكبوت:٤١.

المراحل الأربعة التي تمرّ بها الأمّة

في هـذه الفترة الزمنيّة تمرّ الأمّة بمراحل في الحقيقة، يمكننا تلخيصها في أربعة مراحل:

الأوّلى: الإبداع والتجديد

فهـذا المثل يكون لـه في المرحلة الأوّلـى فاعليّةٌ وعطاءٌ وتجديـدٌ، بقـدر ما يكون له مـن ارتباط بالمسـتقبل، ولكن هذه مكاسـبٌ عاجلةٌ، وليست مكاسـبَ على الخطّ الطويل، لأنّ عمـر هذا المثل قصـيرٌ وسـوف يتحوّل فـي لحظةٍ من اللحظات إلى قوّة إبادة لكلّ ما أعطاه من مكاسـب. انظروا إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَـاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَـعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْـكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَـؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[1].

(١) الإسراء: الآيات ١٨ إلى ٢٠.

المرحلة الثانية: التجمد والانقياد

حينما يتجمّد هذا المثل الأعلى ويستنفذ طاقته وقدرته على العطاء، يتحوّل إلى تمثالٍ، والقادة الذين كانوا يعطون ويوجّهون على أساسه يتحوّلون إلى سادة وكبراء، وجمهور الأمّة يتحوّل إلى مطيعين ومنقادين، لا إلى مشاركين في الإبداع والتطوير، وهذه المرحلة هي المرحلة التي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[1].

المرحلة الثالثة: امتداد تاريخي

هذه السلطة تتحوّل إلى طبقةٍ، بعد ذلك تتوراث مقاعدها عائليّاً أو طبقيّاً، وحينئذ تصبح هذه الطبقة هي الطبقة المترفة، والخالية من الأغراض الكبيرة، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[2].

---

(١) الأحزاب:٦٧.

(٢) الزخرف:٢٣.

المرحلة الرابعة: تسلّط وتدمير

ثمّ حينما تتفتت الأمّة و تفقد ولاءها لذلك المثل التكراريّ يسيطر عليها مجرموها وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(1). يسيطر هتلر والنازيّة مثلاً في جزءٍ من أوروبا، لكي يحطّم كلّ ما في أوروبا من خيرٍ، ويقضي على كلّ تبعات ذلك المثل الأعلى، الذي رفعه الإنسان الأوروبيّ الحديث، والذي تحوّل بالتدريج إلى مَثلٍ تكراريّ.

القسم الثالث: المثل الأعلى الحقيقي

وهو الله سبحانه وتعالى. وفي هذا المثل، التناقض الذي واجهناه في القسمين السابقين من المثل العليا، سوف يُحلّ بأروع صورةٍ، وحاصل ذاك التناقض أنّ الوجود الذهنيّ

(1) الأنعام:123.

للإنســان محدودٌ، والمَثل يجب أن يكون غير محدودٍ، فكيف يمكن التنسيق بين المحــدود وغير المحدود؟ هذا التنسيق سوف نجده فــي المَثل الأعلى الحقيقــيّ؛ لأنّه ليس من نتاج الإنســان بل هو مَثلٌ لأنّه مطلقٌ، لكن الإنسان حينما يريد أن يمســك بحزمةٍ من هــذا النور، طبعاً هو لا يمســك إلّا بقدرٍ محــدودٍ مــن هذا النور، إلّا أنّه يميّز بيــن ما يمسك به وبين مثله الأعلى.

ومن هنــا حرص الإسلام على التمييز دائماً بين الوجود الذهنيّ وما بين الله سبحانه وتعالى، الذي هو المثل الأعلى، فرّق حتى بين الاسم والمسمّى، وأكّد على أنّه لا يجوز عبادة الاســم، وإنّما العبــادة تكون للمسمّى؛ لأنّه هــو المطلق، أمّا الاسم فهو مقيّدٌ ومحدودٌ.

الخلاصة

المثـل الأعلـى يتّحـدد من قبـل كلّ جماعـةٍ بشريّةٍ على أساس وجهة نظرها العامّة نحو الحياة والكون. وكلّ جماعةٍ اختارت مثلها الأعلى، فقد اختارت سبيلها.

وهذه المُثل العليا التـي تتبنّاها الجماعات البشريّة على ثلاثة أقسام:

القسـم الأول: المثـل الأعلـى الـذي يستمـدّ تصوّره مـن الواقع نفسـه، بحدوده وقيـوده وشؤونـه. وحينما يكون كذلـك يصبح حالةً تكراريّةً، ويكون المستقبل تكراراً للواقع وللماضي. ويرجع تبنّي هذا القسم إلى سببين:

١. **سببٌ نفسيٌّ**؛ وهو الألفة والعادة والضياع.

٢. **سبـبٌ خارجـيٌّ**؛ وهو تسلّط الفراعنـة والطواغيت على مرّ التاريخ.

كلّ مَثـلٍ أعلى من المُثل العليـا المنخفضة، لا ينفكّ عن الثـوب الدينـيّ، لأنّ المثل الأعلـى دائماً يحتـلّ مركز الإله بحسب التعبير القرآنيّ.

وعنـد تحليـل ومراقبة أوضـاع الأمـة التي تتمسّـك بمثلٍ

منخفض، نجد أنّها بالتدريـج سوف تفقد ولاءها لهذا المَثل؛ بعد أن يفقد فاعليّته وقدرته على العطاء، وعندها فإن القاعدة الجماهيريّـة الواسعة في هذه الأمّة سـوف تتمزّق[1] وتتحوّل إلى شبحُ أمّة فقط، عندها سوف ينصرف كلّ فرد إلى همومه الصغيرة، لأنّه لا يوجد هناك مَثل أعلى تلتفّ حوله الطاقات.

وقد علّمنا التاريخ أنّه في حالةٍ من هذا القبيل توجد ثلاث إجراءات يمكن أن تنطبق على حالة هذه الأمّة الشبح :

١ـ تداعي الأمّة أمام غزوٍ عسكريٍّ من الخارج.

٢ ـ الذوبان والانصهار في مَثَل أعلى أجنبيّ.

٣ ـ إعـادة المثل الأعلى من جديد، بمستوى العصر الذي تعيشه تلك الأمّة.

القسـم الثاني : هو المثل الذي يكون مشتقّاً من طموح الأمّـة ومن تطلّعهـا إلى المستقبل. ولكنّـه منتزعٍ عن خطوةٍ واحـدةٍ من المستقبل لذلك كان طموحاً محدوداً ومقيّداً لم يستطيعَ أن يتجاوز المسافات الطويلة.

(١) وتكون كما وصف القرآن الكريم ﴿بأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلونَ﴾ الحشر: من الآية١٤.

وفي هـذا المَثَل الأعلى جانبٌ موضوعيٌّ صحيحٌ وهو أن الذهن البشريّ محدودٌ، و المحدود لا يمكن أن يستوعب المطلق، ولكن الخطير في هذه المسألة أنّ هذه الومضة من النور التي يقبضها من هذا المطلق، يحوّلها إلى مطلقٍ وإلى مثلٍ أعلى، وحينئذٍ هـذا المثل سوف يخدمه في المرحلة الحاضرة، لكن سرعان ما سوف يصل إلى حدود هذا المثل القصوى، وحينئذٍ سوف يتحوّل هذا المثل إلى عائقٍ عن التطوّر.

وهـذا المثل الذي يحوّل من محدود إلى مطلقٍ، التعميم فيه تارةً يكون تعميماً أفقيّاً خاطئاً؛ عبر اعتبار هذا المثل أنه يضمّ كلّ قيَم الإنسان التي يجاهد من أجلها؛ بينما هذا المثل، على الرغم من صحّته، غير أنّه لا يمثّل إلّا جزءاً من هذه القيم. وأخرى تعميماً زمنيّاً وعموديّاً عبر تحويل خطوة ناجحة تاريخيّاً، من حدودها كخطوةٍ، إلى مطلق وإلى مثلٍ أعلى، فيجب أن تكون ممارسةُ تلك الخطوة ضمن المثل الأعلى، لا أن تُحوّل نفسها إلى مثلٍ أعلى.

إذا قارنا بين هذين النوعين من المُثل العليا نلاحظ أنّ

المُثـل من النـوع الأوّل امتداداً للمُثل من النـوع الثاني، بأن يبدأ هذا المثل الأعلى مشتقّاً من طموح، لكن حينما يتحقّق هـذا الطموح المحـدود يتحوّل هذا المثل إلـى واقعٍ محدودٍ بحسب الخارج، حينئذٍ يصبح مثلاً تكراريّاً.

فـي هـذه الفتـرة الزمنيّة تمـرّ الأمّـة بمراحـل، يمكن تلخيصها في أربعة مراحل:

١. **الإبداع والتجديد** : هي مرحلة فاعليّة هذا المثل، وسوف تؤدّي إلى مكاسب، ولكنّها في النظر القرآني العميق مكاسب عاجلة تعقبها جهنّم في الدنيا والآخرة.

٢. **التجمد والانقياد** : حينمـا يستنفذ هـذا المثل الأعلـى طاقتـه وقدرتـه علـى العطاء، يتحـوّل إلـى تمثالٍ، والقادة الذين كانوا يوجّهون على أساسه يتحوّلون إلى سادة وكبراء، وجمهور الأمّة يتحوّل إلى منقادين، لا إلى مشاركين في الإبداع والتطوير[1].

٣. **امتداد تاريخي** : هـذه السلطة تتحوّل إلى طبقةٍ،

(١) وهذه المرحلة عبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ الأحزاب:٦٧.

بعد ذلك تتوارث مقاعدها عائليّاً، وتصبح طبقة مترفة، خالية من الأغراض الكبيرة [(١)].

٤. تسلط وتدمير: ثمّ حينما تتفتّت الأمّة، وتفقد ولاءها لذلك المثل التكراريّ، يسيطر عليها مجرموها [(٢)].

القسم الثالث: هو المثل الأعلى الحقيقيّ؛ وهو اللّه سبحانه وتعالى.

في هذا المثل التناقض الذي واجهناه في القسمين السابقين من المثل العليا حول كيفية التنسيق بين المحدود وغير المحدود؟ سوف يُحلّ بأروع صورة؛ لأنّ هذا المثل الأعلى ليس من نتاج الإنسان، بل هو مثل أعلى لأنّه مطلقٌ، لكن الإنسان حينما يريد أن يستلهم من هذا النور وهو لا يمسك إلّا بقدرٍ محدودٍ من هذا النور، إلّا أنّه يميّز بين ما يمسك به وبين مثله الأعلى.

---

(١) وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ الزخرف:٢٣.

(٢) وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الأنعام:١٢٣.

الفهرس